ورقة بعنوان[1]:

الوحدة الإسلامية عند أهل السنة والجماعة

إعداد الدكتور

عصام الدين أحمد محمد بابكر

نائب الأمين العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بالسودان

الخرطوم

ذو القعدة ١٤٣٨هـ الموافق: أغسطس ٢٠١٧م

١- أعدت هذه الورقة للمشاركة بها في ملتقى أهل السنة والجماعة العقيدة والمنهج الذي أقيم في الخرطوم ذو القعدة ١٤٣٨هـ الموافق: أغسطس ٢٠١٧م.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد

فإن قضية الوَحدة الإسلامية من القضايا المهمة التي أولتها الأمة عنايتها منذ صدر الإسلام، فالإسلام دين جماعة واجتماع، وقد آيات كثيرة تحذر من التفرق وتأمر بالاجتماع والاعتصام بحبل الله والتمسك بدينه القويم، كما وردت أحاديث كثيرة في السنة النبوية المطهرة تحث على الوحدة وتبين أهميتها وتحذر من الفرقة ومخاطرها، فقد كانت بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوته للإسلام تطبيقاً عملياً لتحقيق وحدة الصف، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يعمد إلى اعتزال المجتمع ونبذه والوقوف بعيداً عنه معتصماً بدعوته معتزاً بصحة منهجه، وإنما خالط الناس وصبر على أذاهم، هو يدعوهم إلى الخير ويصبر، وهم يرمونه بالأذى المادي والمعنوي فيترفع عن الالتفات إلى تحقيق نصر شخصي، وإنما كان لسان حاله ومقاله: (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)، يصدِّق ذلك ما دعا به لقبيلة دوس حينما طلب منه أميرها الطفيل بن عمرو أن يدعو عليهم لأنهم عصوا وأبوا فقال بأبي هو وأمي: (اللهمَّ اهدِ دَوساً وأْتِ بهم[١])..

وكان العرب متفرقين لا يخضعون لسلطة جامعة، وكانوا متخاصمين في مجتمعاتهم لا يرعون في سواهم إلا ولا ذمة، متفرقين في دينهم: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)} سورة المؤمنون....

فجاءت التوجيهات النبوية تحث على الجماعة في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، حيث نجد كل الأحاديث التي تأمر بطاعة إمام مبايع، وتنهى عن الخروج على الحكام، وتمنع التكفير والسباب والشتم والقتال، مما يدل على حرص الإسلام على وحدة الصف واجتماع الكلمة، وسلامة المجتمع واستقراره..

وبتتبع سريع للأحاديث التي ورد فيها الكلام عن الوحدة نجد فيها الحث على التوحد والاجتماع والنهي عن التفرق، كما نجد فيها الإشارة إلى الأساس الذي يتوحد عليه الناس.. ومن الأمثلة على ما ذكرت:

حديث (يد الله مع الجماعة[٢]) وفيه بيان فضل الاجتماع وأن أهله أقرب لمعية الله ونصره وتأييده، (فالجماعة المؤتلفة من أهل الإسلام، في كنف الله ووقايته فوقهم، وهم بعيدون من الأذى والخوف والاضطراب، فإذا تفرقوا زالت السكينة، وأوقع بأسهم بينهم وفسدت الأحوال[٣])، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ[٤].. ومن الأحاديث الدالة على حسن عاقبة الجماعة قوله عليه الصلاة والسلام: (مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ[٥])، ولذلك أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالجماعة وحذرهم من التفرق بقوله: (الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد[٦])، فكلما مال الناس إلى الاجتماع واقتربوا من التوحد كلما كانوا إلى الاستقامة والسداد أقرب..

١- صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قصة دوسا والطفيل بن عمرو - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه- رقم: ٤٢٨٥- انظر الفتح: ٨/ ٤٣٧.

٢- سنن الترمذي – من حديث عبد الله بن عباس – وصححه الألباني: ٥ / ١٦٦.

٣- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي – للمباركفوري: ٦/ ٣٢٣.

٤- صحيح الجامع الصغير - من حديث النعمان بن بشير- رقم:٣١٠٩، وحسنه الألباني رحمه الله.

٥- جزء من حديث رواه الترمذي في سننه، وقال هذا حديث حسن صحيح - رقم: ٢١٦٥، انظر: تحفة الأحوذي شرح جامع التِّرمذيّ: ٣٨٣/٦- ٣٨٥ ومسند الإمام أحمد رقم: ١١٥- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٦- جزء من حديث رواه الترمذي في سننه، وقال هذا حديث حسن صحيح - رقم: ٢١٦٥، انظر: تحفة الأحوذي شرح جامع التِّرمذيّ: ٣٨٣/٦- ٣٨٥ ومسند الإمام أحمد رقم: ١١٥- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ودلتنا السنة على أنه لن يسلم من ثَلَمَ وحدة الصف من العقوبة في الدنيا والوعيد في الآخرة، لأنه سالك سبيل الأمم السابقة من اليهود والنصارى من الافتراق والبعد عن الحق، فعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار. قيل يا رسول الله من هم قال الجماعة[1])..

وأحلت السنة دم من سعي لشق عصا الناس وتفريق جماعتهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: (من أتاكم وأمرُكم جميعٌ على رجلٍ واحدٍ، يريد أن يشقّ عصاكم ويفرّق جماعتكم فاقتلوه[2])..

تدلنا الأحاديث السابقة على أهمية الجماعة ووحدة الصف وبالتالي تبين لنا مدى أهمية البحث في موضوعه..

سيكون البحث مبنيا على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة..

في المبحث الأول سأتحدث عن تعريفات مفاهيمية، اختصر فيها توضيح المفردات التالية: الوحدة، ووحدة الصف، السنة، الأهل، الجماعة، وأهل السنة والجماعة..

أما المبحث الثاني فسأتحدث فيه عن مقومات وحدة الصف عند أهل السنة والجماعة وهي:

أولا: الاعتصام بالكتاب والسنة.

ثانيا: فهم الدين بفهم السلف الصالح.

ثالثا: التمسك بالهوية الإسلامية والاستغناء عن الغير.

رابعا: بسط الشورى في المجتمع.

وفي المبحث الثالث سأتحدث عن منهج أهل السنة في تحقيق الوحدة الإسلامية ويأتي بيان هذا المنهج في خمسة نقاط رئيسية هي:

أولا: تحقيق التوحيد وتثبيت العقيدةالصحيحة في المجتمع.

ثانيا: الاستقامة على شرع الله.

ثالثا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعا: تحقيق الوحدة الفكرية للمسلمين

خامسا: إشاعة روح التسامح والعدل عند الاختلاف وتباين الآراء.

وختمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج والتوصيات..

أسأل الله أن ينفعنا بما نسمع ونقول

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

١- سنن ابن ماجة - كتاب الفتن- حديث رقم: ٣٩٨٢، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

٢- صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب حكم من فرّق أمر المسلمين: ٣/ ١٤٧٩ .

المبحث الأول
تعريفات مفاهيمية

المطلب الأول: معنى الوَحدة لغة واصطلاحا:

أولا: الوحدة لغة.

وَحَدَ يَحدُ حِدة، ووَحْداً ووجوداً ووَحْدة: على وزن فَعلة، بفتح الواو [فاء الكلمة] بينما الشائع بين العامة كسر الواو (وِحدة)، وتدل على الانفراد[١]...

والاتحاد: امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحداً[٢]..

وتطلق العرب كلمة وحدة ويراد بها أحد ثلاثة معانٍ:

- ✓ تطلق كلمة وحدة على الفرد الواحد المتميز الذي انفرد بصفات لا توجد في نظرائه: فيقال: هو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله، وهذا المعنى يشير إلى الواحد الذي لا نظير له، أو المتقدم على أقرانه المتميز عليهم في أي ضرب من ضروب الحياة، مثل: العلم أو البأس[٣]...
- ✓ وقد تطلق ويراد بها: نفي التبدل والاختلاف[٤]، وقد جاء ذلك في معنى قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام: {لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ (٦١)} سورة البقرة، وذلك احتجاجاً منهم على طعامهم في التيه، رغم أنه كان مكوناً من المن والسلوى؛ إلا أنه لا يتبدل ولا يختلف، ولذلك وصفوه بأنه واحد رغم تعدد أصنافه..
- ✓ وقد يراد بها: المنفرد بالتوحد الذي لا جزء له البتة، ولا يقبل أن يثنى أو ينقسم، ولا نظير له ولا مثيل[٥]، وهذا الوصف بهذا المعنى لا يستحقه إلا المولى عز وجل، ولذلك وصف نفسه سبحانه في سورة الإخلاص بأنه: أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد...

ثانيا: الوحدة اصطلاحا.

كلمة (وَحْدَة) من المصطلحات التي كثر استخدامها في العصر الحديث، وخاصة عند السياسيين، وقد تطلق ومعها مفردة أخرى معرفة أو مضافة مثل: الوحدة السياسية، الوحدة الاقتصادية، الوحدة الجمركية، وحدة الأمة، وحدة الصف، وحدة الكلمة ...

كما قد يستخدم الساسة مصطلحات أخرى مشتقة منها مثل: كلمة (اتحاد)، أو (متحد)، وذلك للتعبير عن كيانات أو دول أو أقاليم توحدت تحت مسمى واحد وفق إطار دستوري يحدد الحقوق والواجبات، والأمثلة على ذلك: المملكة المتحدة، الإمارات العربية المتحدة، الاتحاد الأوربي، الاتحاد السوفيتي، وغير ذلك من الكيانات التي اتحدت منها ما بقى ومنها ما باد وصار تاريخاً يحكى.

بناء على هذا يمكننا تعريف كلمة وحدة اصطلاحاً كما يلي:

حيث يقال: اتحد البلدان، بمعنى صارا بلداً واحداً ومثاله الوحدة التي تمت بين شطري اليمن، وقبلها الوحدة التي تمت بين شطري ألمانيا، وضدها الانفصال، ومثاله انفصال دولة جنوب السودان عن جمهورية السودان..

١- المعجم الوسيط - ص: ١٠٥٨.

٢- التعريفات - للجرجاني - ص: ٢٢.

٣- انظر: معجم مقاييس اللغة - لابن فارس: ٦/ ٩٠، القاموس المحيط - للفيروزبادي: ١/ ٤١٤، ولسان العرب - لابن منظور الأفريقي: ٤٤٦/٣.

٤- انظر: تفسير الكشاف- للزمخشري - ص: ٧٩.

٥- انظر: لسان العرب: ٤٤٣/٣، والقاموس المحيط: ٤١٤/١.

أما الوحدة السياسية فهي: اتحاد الدول أو البلاد أو الأفراد والجماعات، في سائر أمور حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغاياتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع كياناً واحداً[1]..

وتطلق الوحدة الاقتصادية على قيام دولتين فأكثر على توحيد القوانين الاقتصادية وإلغاء الحواجز التي تحول دون حرية حركة البضائع أو الأموال أو الأشخاص.

أما مصطلح الوحدة الإسلامية فيعني: اندماج المسلمين وتوحدهم.. والواجب أن يكون كل المسلمين خاضعين لسلطة واحدة -قدر الإمكان-، أما أساس هذه الوحدة فهو قيم الإسلام الذي يربط بين البشر بعقيدته السمحة، فيلغي بذلك بينهم جميع أشكال الروابط الأخرى، من أصول عرقية ولغوية وغيرها، ويصبح القاسم المشترك بين أفراد هذه الجماعة البشرية هو الدخول في دين الإسلام عقيدة ونظام حياة.

ومن المصطلحات الشائعة مصطلح (الوحدة الوطنية) أو وحدة الصف الوطني، وهو تعبير يطلق في كل دول العالم للإشارة إلى ما يجمع اللحمة الوطنية، ويجعل أبناء الوطن متقاربة همومهم وتطلعاتهم، وأكثر ما يستخدم هذا المصطلح عند الأزمات أو القضايا الكبيرة التي تشغل بال الساسة والمواطنين على حد سواء، فتجدهم يؤكدون عليها وعلى ضرورة التحام أبناء الوطن والتفافهم حول القضايا التي تدفع بهم إلى طريق التطور، أو تجنبهم ويلات التصدع والاحتراب والتفرق الوطني، ولعل هذا المصطلح يوافق ما أشار إليه عنوان البحث بعبارة (وحدة الصف)، لأن وحدة الصف الوطني تعني اصطفاف المواطنين دعماً لقضاياهم العامة بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الاثنية أو المذهبية...

المطلب الثاني: مفهوم أهل السنة والجماعة.

أهل السنة مفهوم ومصطلح مركب من كلمات هي:

أهل التي تعني الآل والأقارب، أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو غير ذلك من صناعة وبيت وبلد وصنعة، فأهل الرجل في الأصل من جمعه وإياهم مسكن واحد ثم تجوز به فقيل أهل بيته من يجمعه وإياهم نسب أو ما ذكر، وعبر عن أهله بامرأته.. وفلان أهل لكذا أي خليق به[2]..

وكلمة السنة: تعني في اللغة الطريقة محمودة كانت أو مذمومة، وهي في الشرع مصطلح يختلف معناه باختلاف أهل كل فن، وما يعنينا في هذه العجالة المعنى الذي ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم واستخدمه الصحابة، ثم شاع بعدما ظهرت الفرق وفشت البدع الاعتقادية، وقد لخصه الشيخ مصطفى السباعي بقوله: (ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم: السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات، خاصة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته ووكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها [كتب السنة]، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة[3])..

فالسنة في الاصطلاح هي: الهدي الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، علما واعتقادا وقولا وعملا، وهي السنة التي يجب اتباعها ويحمد أهلها، ويذم من خالفها[4]..

وهذا المصلح إذا أطلق يدل دلالة واضحة على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، علما وعملا وخلقا وسلوكا وأدبا، وكل ما يشمل نواحي الحياة المختلفة..

١- انظر بحثاً بعنوان: وحدة الأمة الإسلامية قدمه الدكتور أحمد عمر هاشم للملتقى الأول للعلماء المسلمين في مكة المكرمة سنة ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٦م- ص: ٧.

٢- التوقيف على مهمات التعاريف - للمناوي - ص: ١٠٤-١٠٥.

٣- السنة - لمصطفى السباعي- ص: ٤٨.

٤- مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة – ص: ١٣ .

وكلمة جماعة: من الاجتماع وضده التفرق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسما لنفس القوم المجتمعين[١])..

وكلمة جماعة عند أهل السنة تأتي مرادفة للحق قل أتباعه أو كثروا، قال أبو شامة: (حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف كثيرا، لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم[٢])..

وبهذا يعلم أن من اجتمعوا على باطل لا يسري عليهم هذا الاسم من ناحية الاصطلاح، قال الإمام الشاطبي رحمه الله: (إن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث[٣])..

نأتي بعد هذه التعريفات للمعنى المقصود من مصطلح أهل السنة والجماعة:

يقصد بأهل السنة الذين اتبعوا سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به وأمر، وكل ما نهى عنه وزجر، سواء في أمور العقيدة أو أمور الشريعة.

وأهل السنة والجماعة:

هم من كان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهم المتمسكون بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهم الصحابة والتابعون وأئمة الهدى المتبعون لهم، وهم الذين استقاموا على الاتباع وجانبوا الابتداع، في أي مكان وزمان، وهم الباقون المنصورون إلى يوم القيامة[٤]، فهم اجتمعوا على الحق الثابت بالكتاب والسنة، ولم يتفرقوا في الدين، واتبعوا ما أجمع عليه سلف الأمة[٥].

وقد يطلق على أهل السنة اسم السلف أو السلف الصالح، ومن ينتسبون إليهم هم السلفيون، والمفردتان وإن اختلف تركيبهما اللفظي إلا أن دلالة المضمون واحدة، فالسلف هم العاملون بالكتاب المتمسكون بالسنَّة...

والسلفية هي المعنى الأخص لأَهل السنة والجماعة؛ ليخرج من هذا المعنى كل طوائف المبتدعة وأَهل الأَهواء كالخوارج والجهمية والقدرية والمعتزلة والمرجئة والرافضة، وغيرهم من أَهل البدع ممن سلكوا مسلكهم.

فالسنَّة هنا تقابل البدعة، والجماعة تقابل الفرقة[٦]، وهو المقصود في الأَحاديث التي وردت في لزوم الجماعة والنهي عن التفرق، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه ترجمان القرآن، عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما في تفسير قول اللّه تبارك وتعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ (١٠٦)} سورة آل عمران، قال: (تبيضّ وجوهُ أَهلِ السُّنَةِ والجماعة، وتسودَ وجوهُ أَهلِ البدعة والفرقة) [٧]..

ولأهل السنة والجماعة أسماء أخرى عرفوا بها اشتقت من معاني ودلالات الاسم الأشهر منها:

١. أهل السنة، دون إضافة الجماعة.
٢. الجماعة.
٣. أهل الأثر: أي السنة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

١- مجموع الفتاوى: ٣/ ١٥٧.
٢- الباعث في النهي عن البدع والحوادث – لابن أبي شامة – ص: ٢٢.
٣- الاعتصام: ٢/ ٢٦٥.
٤- انظر: شرح العقيدة الطحاوية – ص: ٤٣٠، ومباحث في عقيدة أهل السنة – ص: ١٦.
٥- مجلة البحوث الإسلامية: ٧٦ /١٧٨.
٦- انظر: الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة - ص: ٢٩..
٧- تفسير القرآن العظيم - لابن كثير: ا/٣٩٠.

٤. أهل الحديث؛ لأنهم هم الآخذون بحديث النبي صلى الله عليه وسلمرواية ودراية، المتبعون لهديه صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا.
٥. الفرقة الناجية لأنها تنجو من الشرور والبدع والضلالات في الدنيا، وتنجو من النار يوم القيامة، ويتأتى ذلك باتباعها سنة النبي صلى الله عليه وسلم.
٦. الطائفة المنصورة، أي المؤيدة من الله سبحانه وتعالى.
٧. أهل الاتباع وذلك لاتباعهم الكتاب والسنة، وآثار السلف الصالح[١].

المبحث الثاني

مقومات الوحدة الإسلامية عند أهل السنة والجماعة

أمر الله بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع[٢]، الذي يجمع القلوب والشعوب خلف قيادة واحدة، ويوحد الصفوف والكيانات تحت منهج واحد، ولهذا قيل: ما يكرهون في الجماعة خير مما يجمعون من الفرقة[٣]، ولقد قامت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أسس هي دعامات ومقومات لوحدة الصف المسلم لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان، من أبرز مقومات وحدة الصف ما يلي:

أولا: الاعتصام بالقرآن والسنة

لا يعرف في السياسة العامة داء أسوأ من تفرق الأمة وتمزق صفوفها وانقسامها فرقا وأحزابا، لذا حرص الإسلام إبان عهده الأول على وحدة الصف، واجتماع الكلمة، وتحقيق الألفة، وإشاعة المحبة، والسبيل التي وحّد اللّه بها الأمة هو اتحاد دستورها، واعتصامها بكتاب اللّه وسنة نبيه[٤]، قال اللّه تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)} سورة آل عمران، ومما جاء في سبب نزول الآية ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (كان بين الأوس والخزرج شر في الجاهلية، فذكروا ما بينهم، فثار بعضهم إلى بعض بالسيوف فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له فذهب إليهم، فنزلت هذه الآية[٥])، فالاعتصام بالكتاب والسنة من أعظم المقومات التي توحد الأمة، وتجمع كلمتها..

والأمة اليوم والمهددات والأطماع تتناوشها من كل حدب وصوب، لهي بأمس الحاجة إلى التمسك الصحيح بدينها وسنة رسولها صلى الله عليه وسلم في محبةٍ وتآلف واعتصام، وفي سماحة ويُسرٍ ووئام، وبذلك تتحقق وحدة الصف، وجمع الشمل، وتوحيد الكلمة على منهج الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة رحمهم الله، فلن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وبذلك تنكشف الغمة عن هذه الأمة، وما ذلك على الله بعزيز[٦]...

ثانيا: فهم الدين بفهم السلف.

تباينت آراء الجماعات والفرق في مناهج التلقي والاستدلال، وكيفية التعاطي مع نصوص الوحيين، وبناء عليه تباينت آراؤهم في المسألة الواحدة، بل ربما نجد في الفرقة الواحدة آراء متعددة

١- انظر: مجلة البحوث الإسلامية: ٧٦ / ١٧٩-١٨٠..
٢- انظر: مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية – للشيخ محمد بن عبد الوهاب، مع شرح الشيخ محمود شكري الألوسي- ص: ١٠- ١٣.
٣- انظر مجموع الفتاوي: الفتاوى الكبرى - لابن تيمية: ٥ /١١١، وانظر: مجموع الفتاوى: ١٨١/٣.
٤- انظر: التفسير الوسيط - للدكتور وهبة الزحيلي: ١ /٢٢١.
٥- أسباب نزول القرآن - للواحدي – ص:٤٠.
٦- انظر: دروس الشيخ عبد الرحمن السديس –حفظه الله-: ١٤ /١٠، (منسوخة ضمن المكتبة الشاملة)..

حيال مسألة واحدة، وقد أدى تباين الآراء إلى الاختلاف والتشاحن وتبديع المخالف وتكفيره، وما ذلك إلا لاختلاف مناهج التلقي ثم كيفية الاستدلال، بل تختلف الآراء الفرق حول ما هو الدليل وما الذي يصلح أن يكون دليلا وما الذي لا يصلح، وقد أخبرنا المولى جل ثناؤه عن مغبة مخالفة منهج السلف في التلقي والاستدلال فقال: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)} سورة البقرة، وقديما وصف الإمام أحمد رحمه الله من خالف السلف بأنهم: (الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يتشبه عليهم).. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به؛ وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب[١])..

وقد ازدادت الشقة في مجتمعات المسلمين لما ظهر أثر المتشبهين بالغرب وفكره وثقافته، خاصة وقد أضحوا نجوم المجتمع في السياسة والاقتصاد وتحكموا في مقاليد الدولة، وإذ قد تغيرت طريقة تفكيرهم[٢] وقلت حصيلتهم من العلم الشرعي وضعف انتماؤهم للدين؛ عندئذ تبنوا العلمانية سياسة والليبرالية منهجا، والثقافة الغربية مظهرا، ومناهج الغربيين قبلة (!!)، مما فرق بين القادة والمجتمع من ناحية، وأبعد الأمة من هويتها وأهدافها من ناحية أخرى، فتفرقت واختلفت، وأمست غثاء عالة على فتات الثقافات وقشور الحضارة، وما ذلك إلا لبعدهم عن منهج السلف الذين قال قائلهم: (لَنْ يَصْلُحَ آخرُ هَذهِ الأمةِ إلاَّ بما صَلُحَ بهِ أَوَّلها ؛ فَمَا لَمْ يَكُنْ يوْمئذ دينا لاَ يَكُونُ اليَوم دِينا[٣])..

بهذا نصل إلى أن العصمة من الاختلاف تكمن في اتباع منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، لأنهم أهل الجماعة الذين يجمعون الدين كله، ويقومون به كله، فإنهم اجتمعوا على ذلك..

والجماعة سبب ونتيجة، طاعة ورحمة، فمِن طاعة الله المحافظة على الجماعة، ومن رحمة الله بأهل طاعته أن حفظ لهم جماعتهم ووحدتهم، وما يفعلونه أو يذرونه (فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، "وطريقتهم" هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدا، لكن لما أخبر النبي أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً (وَهِيَ الْجَمَاعَةُ[٤])، وفي حديث عنه أنه قال: (من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي[٥])؛ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب: هم أهل السنة والجماعة[٦]..

وأيضا من فوائد التمسك بفهم السلف في التلقي، عصمة الأمة من الاستلاب الحضاري والثقافي، فضلا عن الاستيلاء السياسي، فقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن ابن دقيق العيد قوله: (إنما استولت التتار على بلاد المشرق ؛ لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة[٧])..

ويرجع ابن خلدون سبب استيلاء النصارى على بلاد المسلمين في الأندلس لمحبة النصارى مما أدى بهم إلى التشبه بالكفار والاقتداء بهم قال: (إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة،

١- مجموع الفتاوى: ٤٢١/٣.

٢- لمزيد تفصيل عن أثر الثقافات الدخيلة في مجتمعات المسلمين؛ انظر: العقيدة الإسلامية عند الفقهاء الأربعة [الموقف والمنهاج]- للأستاذ الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي- ص: ١٠٥- ١٤٠.

٣- القول منسوب للإمام مالك رحمه الله، الشفا بأحوال المصطفى - للقاضي عياض: ٨٨/٢.

٤- سنن ابن ماجه: ٤٩٤/١١، والمعجم الكبير - للطبراني: ١٤ /٣٠٢..

٥- المعجم الأوسط - للطبراني: ١٧ /١٤١.

٦- مجموع الفتاوى: ١٥٩/٣.

٧- مجموع الفتاوى: ٢ /٢٤٥.

فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله[1]..

صفوة القول في منهج السلف في التلقي والعلم، أنهم يثبتون كل ما وافق الكتاب والسنة ويبطلون ما خالفهما، ولا يقرون قولا ولا يقبلون اجتهادا إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة والإجماع، والسلف لا أحد فرد معصوم عندهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أجمعت عليه الأمة حجة شرعية ملزمة، ولا يعارضون القرآن والسنة بعقل أو رأي أو قياس، والجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة، ولا يوجبون على العاجز في معرفة العلم ما يجب على القادر[2]..

ثالثا: التمسك بالهوية الإسلامية والاستغناء عن الغير

ليس من سبيل إلى اجتماع الأمة غير التمسك والاعتداد بهويتها الإسلامية، فلا الأرض تجمعها إذ الأمة تعيش على امتداد الكرة الأرضية، ولا اللغة تجمعها لأن اللغات متعددة، ولا التاريخ لأنه لا تاريخ للأمة مشرف إلا بالإسلام، ولا الأعراق لأن أعراق الأمة كثيرة، وفي كل عرق ألوان من القوميات، ومرد الجميع إلى آدم.

إن الأمة لم تعرف الاجتماع والألفة إلا حين عرفت هذا الدين، وأما المقومات الأخرى ففي كل مقوم من دواعي التشرذم والاختلاف ما لا يحصى، يقول تعالى ممتنا على الأمة: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)} سورة الأنفال[3]..

وتتطلب عزة العرب والمسلمين أولا وقبل كل شيء الاستغناء عن غيرهم في كل جانب عسكري أو اقتصادي أو غيرهما، لأن الحاجة تورث المذلة والهوان، مما يعرض الأمة لإملاءات غيرها ويجبرها على الخضوع لشروط غيرها، ولا سبيل لتحقيق عزتها إلا بالعمل الجاد والانتاج النافع الذي يحول الحاجة إلى وفرة والقلة إلى كثرة..

وبالاستغناء عن الغير خاصة إذا كان الغير من خارج الصف الإسلامي؛ تتحقق العزة وتتحول الأمة من مغلوبة إلى غالبة، وعندئذ لن تكون عرضة للابتزاز الفكري والاستلاب الثقافي الذي يورث اختلاف طرق التفكير في المجتمع الواحد، ويغري أبناءالمسلميين للارتماء في أحضان الأفكار الوافدة التي تفرق كلمتهم وتشتت صفوفهم..

إن السبيل لوحدة صف هذه الأمة (هو الحفاظ على شخصيتها المتماسكة، وتميزها الذاتي، ورفض تبعيتها لغيرها من الأمم التي لا تبغي لها إلا الشر، وينبغي أن تكون لنا استراتيجيتنا الذاتية وخطتنا الخاصة وعقليتنا الواعية، فلا نطمئن لمشورة غيرنا، ولنتأمل جيدا في مصداقية ما ينصحوننا به[4])..

رابعا: طاعة القيادة في المعروف.

من المعلوم أن (كل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم؛ والتناصر لدفع مضارهم؛ ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور

١- مقدمة ابن خلدون: ص: ٧٣.

٢- كل المعاني المذكورة مستفادة من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية المجلدات ٣ و١٢و١٣ باختصار وتصرف...

٣- مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر [الأسباب - الآثار - العلاج]- للدكتور عبد الرحمن بن معلا اللويحق: ٥٦٥/٢.

٤- التفسير الوسيط - للزحيلي: ٢٢٣/١.

يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناه[1]..

ولهذا فإن طاعة من تولى أمر الناس من أسباب النصر في القتال، ومن أسباب اجتماع الكلمة ووحدة الصف، لأنها وسيلة الانضباط، وتوفير النظام، وقمع الفوضى.. والخلاف والنزاع من أسباب الفشل والخيبة، قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} سورة الأنفال..

ومن نافلة القول أن نذكر أن طاعة أولي الأمر إنما تكون في المعروف، ولكن ولحرص الإسلام على اجتماع الكلمة لم يترك لكل الناس التصرف وفق ما يرون إذا خرج الحاكم عن المعروف، أو وقع في خطأ أو أصدر من التصرفات والأعمال ما فيه مضرة دنيوية على المواطنين؛ فإن الدور يأتي على العلماء، فإن (أخطأ الحاكم فينصح من قبل أهل العلم ويبين له الخطأ، فإن عاد عن خطئه فالرجوع للحق خير من التمادي في الباطل، وإن أصر على خطئه فعليهم متابعته، ويحمل تبعة ذلك أمام رب العالمين، ولا يجوز مخالفته ما دام الخطأ يسيرا؛ لأن وحدة الصف تبقى هدفا ساميا في الأمة، ولا يجوز التفرق والانشقاق، أما إذا أمر بمعصية لرب العالمين فلا طاعة في معصيته، فحق الحاكم يتوقف عندما يبدأ حق الله، فإطاعته منوطة بإطاعته لله ورسوله، فإن خالف أمرهما فالعالم يبين وينصح، فلا استبداد ولا تسلط ولا ظلم في الإسلام، وكذلك لا تمرد أو عصيان للإمام المسلم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)} سورة النساء، فأمر الله ورسوله للأمة حكاما ومحكومين بالاستقامة والطاعة..

ويجب أن نعلم أن عدم طاعة ولاة الأمر، والتمرد عليهم من مسائل الجاهلية التي جاء النبي صلى الله عليه وسلم بخلافها، وهي من صفات أهل البدع والأهواء الذين خالفوا ما كان عليه السلف الصالح من الاجتماع والطاعة والصبر والنصح، فقد كان العرب في الجاهلية متفرقين لا يخضعون لسلطة جامعة بل كانوا يرون (أن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة، والسمع والطاعة له ذل ومهانة، فخالفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلظ في ذلك وأبدى وأعاد[2])..

خامسا: بسط الشورى في المجتمع.

الشورى من القيم النبيلة في المجتمع الإسلامي، وهي من مميزات الفكر السياسي الإسلامي، والعناية بها وبسطها في مجتمعات المسلمين من الأمور المهمة التي تجمع القلوب وتزيل الشحناء وتوحد الهم، وتجعل كل فرد يشعر بأنه مسؤول ومشارك فاعل في المجتمع..

فالشورى توجِد تلاحماً حقيقياً بين الأمة والحكومة، بحيث يشعر الناس أنهم أصحاب دار ليسوا ضيوفاً أو أجراء، كما تزرع اطمئناناً لدى الشعوب بصواب العمل، وأنهم لا يُقادون من خلال نزعات فردية، مما يساهم بدرجة كبيرة في قناعة الناس بما يصدر من تنظيمات أو ترتيبات، وهذا يسهم بدوره في الالتزام بها، والعمل على إنجاحها[3].

وقد أعطى الإسلام الأمة بمجموعها من الصلاحيات أكثر مما أعطى الإمام أو الرئيس فجعلها مصدر سلطان الحكَّام باعتبارهم نواباً عنها، وألزم الله الحكام بالرجوع إلى الأمة

١- مجموع الفتاوى - لابن تيمية: ٢٨ /٦٢، ولمزيد تفصيل انظر: المرجع نفسه: ٢٨/ ٦٣..

٢- شرح مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين– للشيخ الفوزان – ص: ٤٤..

٣- انظر: الفكر الإسلامي منهجيته ودواعي تجديده - عصام الدين أحمد محمد بابكر (بحث دكتوراه غير منشور) - ص: ٢٤١.

واستشارتها في كل أمور الحكم والتزام ما يراه ممثلوها: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ (١٥٩)] سورة آل عمران, لأن [أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (٣٨)} سورة الشورى، وللأمة ممثلة في نوابها أن تراقبهم في كل أعمالهم، وأن تردَّهم إلى الصواب كلما أخطأوا، وتقوِّمهم كلما اعوجُّوا، لتستقيم لها وحدتها واجتماع كلمتها..

وقد شدد العلماء على ضرورة الشورى حرصا منهم على اجتماع القلوب وائتلاف الجماعة، بل ذهبوا إلى وجوب عزل من لا يستشير، لأن الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب[١]، لأن في الشورى ألفة للجماعة.. وسبب إلى الصواب، والذين يتشاورون يمشون على طريق الهداية[٢] والرشاد، قال الإمام البخاري رحمه الله: (كَانَتْ الْأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَشِيرُونَ الْأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا فَإِذَا وَضَحَ الْكِتَابُ أَوْ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ[٣]).. وهذا فقه عميق ونظر دقيق من البخاري رحمه الله، حيث بيَّن أهمية الشورى وكون العمل بها اعتصام بالكتاب والسنة، وبعد عن الانحراف..

ولعل من نافلة القول أن نذكر فوائد للشورى، ولكن مما يعنينا ويهمنا من فوائدها أنها: توفر فرصة ممتازة لانصهار (الرعية والراعي في بوتقة واحدة، ولا يكون الجميع إلا جسداً واحداً همه الوصول بالأمة في المسائل المعروضة إلى بر الأمان، وتحقيق أعلى المصالح[٤])..

المبحث الثالث

منهج أهل السنة والجماعة في تحقيق الوحدة الإسلامية

امتاز منهج السلف رضوان الله عليهم باتباع القول بالعمل، وبالعناية بما يجمع لا ما يفرق، ولقد كان لدعوة أهل السنة والجماعة دور كبير في تحقيق الوحدة كلما تفرقت الأمة وفارقت كتاب ربها ومنهج نبيها، فمنذ بداية البعثة النبوية تجلى هذا الأمر وبدا ظاهرا ملموسا، وإن تظاهر المخالفون بالقول بخلاف ذلك، ففي حين كانت قريش تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يفرق بين المرء وزوجه، وأنه يفرق المجتمع المستقر؛ نجد الحقيقة خلاف زعمهم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يوحد المجتمع ويجمع كلمته...

ففي حين كانوا متفرقين على عبادة أكثر من ثلاثمائة وستين إلها؛ دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم لعبادة رب واحد اجتمعت القلوب على طاعته ومحبته والانقياد لأمره...

وفي حين كانت العرب معتصمة بقبائلها حمية، صهرها النبي صلى الله عليه وسلم في بوتقة واحدة، أرست دعائم دولة مجتمِعة الهم متحدة الهدف...

وفي حين كانت العرب منغلقة على نظمها البدوية المتفرقة جاهليةً، نظمها النبي صلى الله عليه وسلم في سلك الدولة الواحدة، والخلافة والرَشَد..

ولأن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم هم الدعاة أهل البصائر؛ فقد ساروا على ذات النهج، فأرسوا دعائم منهج السلف في تحقيق الوحدة واجتماع الكلمة، فيما يلي بعض معالم منهج أهل السنة والجماعة في تحقيق وَحدة الصف المسلم..

أولا: تحقيق التوحيد وتثبيت العقيدة الصحيحة في المجتمع.

إن (كلمة التوحيد هي أساس توحيد الكلمة، ولا يكون الاجتماع إلا عليها، فلقد امتن الله على المؤمنين بها، فجمع بها شملهم بعد الشتات، ولَمَّ شعثهم بعد التفرق[١])، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

١- المحرر الوجيز - لابن عطية: ٢/٢٨٠.
٢- الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٨٦٨.
٣- سبق تخريجه صفحة: ١٨٧، هامش رقم: (١).
٤- انظر: الفكر الإسلامي منهجيته ودواعه - عصام الدين أحمد محمد بابكر بحث دكتوراه غير منشور - ص: ٢٤١.

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً (١٠٣)} سورة آل عمران، و(إن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية؛ لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة.

على أن التآخي أيضا لا بد أن يكون مسبوقا بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم، خصوصا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية..

ومن أجل ذلك فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أساس الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابه؛ العقيدة الإسلامية التي جاءهم بها من عند الله تعالى، والتي تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكا لأنانيته وأثرته وأهوائه[٢]..

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعا عقديا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاها إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه، على أن ينخلع المنتمي إليه من صفات الجاهلية، ويكتسب الشخصية الإسلامية، ليتمتع بسائر حقوق المسلمين[٣]..

نلاحظ أن النقول أعلاه تؤكد على أن وحدة القلوب هي الأُولى والأَولى، ولا تتحقق وحدة القلوب إلا على أساس العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص، وعندئذ تحدث الوحدة الفكرية، التي تخرج منها التصورات الصحيحة وتنتج التصرفات المنضبطة بالشريعة...

ثانيا: الاستقامة على شرع الله.

تأتي الاستقامة على شرع الله دليلا على ارتباط المجتمع بربه، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من خصال إذا تركت حلت في الأمراض والنقم والتفرق، خامسة تلك الخصال هي قوله عليه الصلاة والسلام: (وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ[٤])، هذه هي عاقبة البعد عن الشرع المنزل والركون إلى الشرع المبدل، لأن فيه دليلا على الركون إلى الدنيا، واتخاذ أرباب من دون الله يشرعون ويحلون ويحرمون من دون الله، فمن جاءته البينة وفارقها وقع في الشقاق، لأن شرع الله هو عبادة الله سبحانه وحده لا شريك له[٥]..

والاستقامة على شرع الله مخاطب بها الفرد والمجتمع، الفرد يستقيم بنفسه على شرع الله وحدوده فيجتنب المعاصي ويسارع إلى الطاعات[٦]، والمجتمع يستجيب برضى لأوامر الله فلا تُرى المنكرات في الطرقات والأماكن العامة، ولا يرضى إلا بشيوع مظهر واحد هو ما أمر الله عز وجل به ورسوله، وهذا هو توقير الله وتعظيمه بين الأفراد والمجتمعات، ومتى اختل هذا التوقير وصف الفرد والمجتمع بأنه لم يقدر الله حق قدره، لأن كلّ مخالف لأوامر الله سبحانه وتعالى

١- رسائل الشيخ الحمد في العقيدة: ٦ /١٤.
٢- فقه السيرة - للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي - ص: ٢٠٠- ٢٠١.
٣- المجتمع المدني في عهد النبوة [خصائصه وتنظيماته الأولى] - د. أكرم ضياء العمري- ص: ٨٤.
٤- سنن ابن ماجه: ١٢ /٢٥.
٥- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد- للشيخ صالح بن فوزان الفوزان: ١ /٢٩.
٦- لمزيد تفصيل: انظر الإبانة الكبرى – لابن بطة- ص: ٣٦١.

ونواهيه وأحكامه فإنّه ما قدر الله حقّ قدره، ولم يمتثل شرعَ الله، ومن لم يمتثل شرع الله فإنّه لم يقدُره حقّ قدره..

كذلك من حكم بغير ما أنزل الله، وجعل القوانين الوضعيّة بديلاً عن الأحكام الشّرعية التي شرعها الله لعباده ما قدر الله حقّ قدره، يقول -بلسان الحال أو بلسان المقال-: إنّ شرعك لا يصلُح للبشر، وإنّما يصلُح للبشر القوانين البشرية التي وضعها المخلوق[1] (!!)...

وأهل السنة والجماعة في أخلاقهم وسلوكهم يأتمون بالكتاب والسنة، سواء في علاقاتهم مع بعضهم أو مع غيرهم، و(يأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا[2]) ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها وكل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا أو غيره: فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه عليه وسلم[3])..

ثالثا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب من أبواب الدعوة إلى الله، وهو من أوصاف الأمة الإسلامية التي استحقت بها الخيرية على الأمم، كونها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، قال الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (١١٠)} سورة آل عمران، وقد استحق بنو إسرائيل اللعن بتركهم لهذه الشعيرة، قال الله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)} سورة المائدة..

وإذا كان مناط خيرية هذه الأمة على قيام هذه الشعيرة، فإن أهل السنة الجماعة امتازوا بحسن القيام بها دونا عن غيرهم ممن مارسها وفرق الأمة وأوقع بها الأذى كالخوارج والمعتزلة قديما، والجماعات المتطرفة حديثا.. فقد قعَّد أهل السنة القواعد التي تبين منهجهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يؤدي لإصلاح المجتمع، وبالتالي تزول أسباب البعد عن شرع الله، وتتوفر أسباب الوحدة والائتلاف، فهم (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارا كانوا أو فجارا، ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة[4]، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَه[5])، وقوله: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى[6])..

ولهذا فإن أهل السنة هم أهل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهذا هو الأصل الأول، والقاعدة العظيمة التي جعلتهم خير أمة أخرجت للناس، ولكنهم يقومون بذلك على ما توجبه الشريعة، فيلتزمون في الوقت نفسه أصلا آخر وقاعدة أخرى عظيمة، هي الحفاظ على الجماعة

١- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد: ٢ /٣١٩.
٢- سنن الترمذي [٤ /٣٩٠]
٣- مجموع الفتاوى: ٣ /١٥٨-١٥٩.
٤- مجموع الفتاوى: ٣ /١٥٨.
٥- صحيح البخاري: ٢ /٢٨٩، وسنن الترمذي: ٧ / ١٦٧، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).
٦- صحيح البخاري: ١٨ /٤٢٦.

وتأليف القلوب، واجتماع الكلمة ونبذ التفرق[1].. وهم يعلمون أن (من الأمر بالمعروف: الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة[2])...

رابعا: تحقيق الوحدة الفكرية.

إن الإيمان بالله ورسوله يحتم على الأمة الإسلامية أن تتمسك بمصدر الحق المعصوم، الذي مَنَّ الله به عليها دون سائر الأمم، وألا تتلقى من غيره فيما كفاها مؤونته، بل تحكِّمه في كل ما تأخذ وما تذر، وهذا أصل قطعي كلي تضافرت للدلالة عليه الآيات والأحاديث[3]، ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على وحدة التلقي لدى أصحابه رضوان الله عليهم، لأن اختلاف الثقافات سبب لاختلاف طريقة التفكير، وقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم لما قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا وقد هممنا أن نكتبها[4]، قال الإمام النووي رحمه الله: (فلولا أن ذلك معصية ما غضب صلى الله عليه وسلم منه[5])، وقد أنكر المولى سبحانه وتعالى على من لم يكتف بكتابه فقال: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)} سورة العنكبوت.

ويالله العجب كيف يقدم قول من يقول: قال لي عقلي عن ابن سينا والفارابي وأرسطاطاليس وأشباههم، أو عن أبي الهذيل العلاف والشحام والنظام وأضرابهم[6]....

بل وأعجب منه من يقول ويحمل الناس على أقوال أرباب الفلسفات الغربية المادية المعاصرة من الشيوعية والعلمانية والليبرالية وترهات العولمة؟؟!!، ويعارض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بدعاوى باردة وحجج واهية، و(لو عورض ما جاء به خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه بموسى وعيسى كانت هذه المعارضة ضلالا وانسلاخا من الدين بالكلية، كما صرح به المعصوم صلى الله عليه وسلم: فعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ الْكُتُبِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ كِتَابًا حَسَنًا مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ: (أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً. لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى كان حَيًّا اليَوم مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي[7])، فما الظن بمن يعارض قول النبي برأي مفكر أو عالم أو باحث، ويرد ما لم يتفق مع رأي متبوعه من كتاب الله وسنة رسوله..

ولذلك فإن الحرص على الوحدة الفكرية ضرورية لأنها ضمانة هامة من ضمانات استقرار المجتمعات في مناهجها وتشريعاتها وكل نظمها، ومتى انتهكت هذه الحصانة ضاعت الأمة وفقدت كبنونتها ووجودها واستقلالها...

ولهذا نجد أهل السنة يؤكدون على ضرورة الوحدة الفكرية للأمة بأجمعها، لأنه تبين لهم أنَّ من أَهم أَسباب اختلاف المسلمين؛ اختلاف مناهجهم وتعدد مصادر التلقِّي عندهم، فتوحيد مصدرهم في العقيدة والتلقِّي سبب مهم لتوحيد الأمَة، كما تحقق في صدرها الأَوَل[8]..

خامسا: إشاعة روح التسامح والعدل عند الاختلاف وتباين الآراء في الاجتهاد.

١- معالم الانطلاقة الكبرى عند أهل السنة والجماعة- لمحمد عبد الهادي المصري– ص: ٨٨.

٢- مجموع الفتاوى: ٣ /٤٢٢.

٣- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي [ص ٢٨٨]

٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - الخطيب [٤ /٢١٥]

٥- المجموع شرح المهذب - النووي [١٥ /٣٢٨]

٦- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة -لابن قيم الجوزية: ١٣٥٠/٤-١٣٥١.

٧- مصنف ابن أبي شيبة [٩ /٤٧]

٨- الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة - الأثري- ص: ٣٢.

إن الاختلاف من طبيعة البشر، قال الله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ (١١٩)} سورة هو.د، ولا شك أنه يختلف ويتفاوت باختلاف النيات والمقاصد، واختلاف العقول والمدارك، واختلاف العلوم...

وقد علَّمنا ديننا الحنيف أن موافقة الجماعة في المسائل الاجتهادية الظاهرة فيما يراه المجتهد مرجوحًا خير من مفارقتهم إلى ما يراه راجحًا، ذلك أن من أهم المقاصد الشرعية الاتفاق وعدم المنازعة، كما قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا (١٠٣)} سورة آل عمران، فكل ما يقوي وحدة الصف المسلم، ولا يترتب عليه محظور شرعي فهو مطلوب، وهكذا كان هدي السلف رضوان الله عليهم، فقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عاب على عثمان رضي الله عنه صلاته بمنى أربعا وصلى معه, فقيل له في ذلك فقال: (الخلاف شر[١])، ووذكر أبو القاسم في المدونة أنه قال لشيخه الإمام مالك: (إنه يلينا قوم يرون خلاف ما ترى في السهو, يرون أن ذلك عليهم بعد السلام فيسهو أحدهم سهوا يكون عندنا سجود ذلك السهو قبل السلام, ويراه الإمام بعد السلام فيسجد بنا بعد السلام؟ قال: اتبعوه فإن الخلاف أشر[٢]).

وأصل هذا الفهم الدقيق السنة النبوية المطهرة، فقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم أمراً من الحق حرصاً منه على تأليف القلوب، وذلك لما امتنع عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على الأساس الذي بناها عليه إبراهيم الخليل[٣]، وما ذلك إلا لحرصه عليه الصلاة والسلام على الألفة واجتماع الكلمة[٤]، قال ابن تيمية: (ويسوغ أيضا أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب, واجتماع الكلمة خوفا من التنفير عما يصلح[٥])، ولذلك قال العلماء: (ترك المستحب لتأليف القلوب واجب[٦])..

ويتطلب التعامل مع الخلاف موقفا شرعيًّا وفهما وإنصافا، ففي حين نجد بعض الدعاة يدعو إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ونسيان الخلاف دون تحديد ضابط دقيق لمن يمكن الوحدة معه، ومن تجب مفاصلته لبدعته وضلاله وانحرافه.

نجد في الطرف الآخر من يبالغ في الشروط، حتى ليريد من الناس أن يوافقوه في كل شيء، حتى في اجتهاداته الشخصية الفردية وآرائه الخاصة، فإذا خالفه أحد في بعض ذلك أعرض عنه، واتخذ منه موقف المناوئ، وأصبح لا يأبه به ولا يقيم له وزنا!

والعدل يقتضي تقبل الخلاف فيما يسوغ الخلاف فيه كالوسائل الدعوية، والفرعيات والأحكام التي اختلف فيها السابقون.. ونحو ذلك مما بني على اجتهاد شرعي في فهم النصوص، لا على مجرد الميل والتشهي[٧]...

وقد شدد العلماء على أن المختلفين أو المتبعين لقولٍ اجتهادي، يجب ألا يضحوا (بالأخوة الإسلامية القطعية الثبوت والدلالة وحقوقها، في مقابل مسألة خلافية الخلاف فيها محتمل، أو اجتهادية قد سبق الخلاف في مثلها أو نحوها بين أهل العصور الفاضلة فما أذهبت ودا، وما أوقدت بغضاء، ولا قدحت في دين... ما دام ذلك في الإطار العام للأصول والثوابت الإسلامية القطعية[٨])..

١- الأم – للإمام الشافعي: ٧/ ١٨٨.
٢- المدونة الكبرى- للإمام مالك بن أنس – ص: ٢٢٢.
٣- سنن الترمذي: ٣/ ٤١٦، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.
٤- مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٩٥.
٥- الفتاوى الكبرى – لابن تيمية: ٢/ ٣٥٥.
٦- هي قاعدة فقهية جليلة النفع انظر لمزيد تفصيل عنها انظر: مجموع الفتاوى: ٢٢/ ٤٠٧.
٧- من أخلاق الداعية - لسلمان بن فهد بن عبد الله العودة - ص: ٥٤- ٥٥.
٨- لا إنكار في مسائل الخلاف – للدكتور عبد السلام مقبل المجيدي- [من سلسلة كتاب الأمة – العدد (٩٤)]- ص: ١٣٦.

ما أحوج أهل السنة قبل غيرهم إلى هذه القيم والمباديء، لشد اللحمة فيما بينهم، ليتفرغوا لدعوة غيرهم وإصلاحهم بدلا من إضاعة الأوقات في قيل وقال...

خاتمة البحث

الحمد لله على التمام

فقد استغرق هذه البحث وقتا ليس بالكثير ولكن الالتفات إلى كثرة المشغوليات حجب عني كثيرا من المسائل المفيدات، ولكني أحمد الله عز وجل على التوفيق والسداد، أن أعانني على إكماله.

هذا البحث المهم الذي هو فريضة وقت وموضوع ساعة يتطلب تنفيذه على أرض الواقع تضحيات وهضم لحقوق النفس وقمع لهواها..

لأن السلف لم يتركوا لنا منه شيئا يعسر علينا بحثه، فقد قعدوا القواعد العلمية، وشادوا المباني الشواهق، تأليفا وكتابة، وكان في مناهج المصلحين محطات عملية في كيفية تحقيق وحدة الصف.. فما بقي على من ترسم منهجهم إلا التأسي والعمل، وقليل من الجهد المبارك يثمر خيرات حسان إن شاء الله..

توصلت في هذا البحث إلى نتائج مهمة منها:

١. أن وحدة الصف مقصد شرعي أكد الشرع عليه وأمر به الله ورسوله، ونهوا عن نقيضه وهو التفرق والاختلاف..
٢. أن وحدة الصف المسلم ممكنة ما تمسك المسلمون بكتاب ربهم وسنة نبيهم على هدي فهم لفهم الصالح رضوان الله عليهم...
٣. أن السبيل الأساس لتحقيق وحدة الصف هو إصلاح العقائد وإخلاص التوحيد والاستقامة على شرع الله.. ولتستمر هذه الوحدة لا بد للأمة من وحدة فكرية تصون هوية الأمة من الاستلاب وترسم خطى الغير واتباع سننهم..
٤. ولعل من أهم نتائج هذا البحث: أن وحدة الصف السلفي ليست شعارا يرفع ويتاجر به، ولكنها هدف استراتيجي يجب أن يُسعى لأجله ويحافظ عليه ويبذل لأجله الغالي والنفيس..

توصيات البحث

أولا: أوصي عامة أهل السنة بإشاعة روح التسامح والتغاضي والعدل ولين الجانب في التعامل مع الموالف والمخالف..

ثانيا: أوصي قيادة جماعتنا المباركة بإبراز وإعلان خطتها لإصلاح الجماعة وتوحيدها لأنها أعدت بعناية وإحكام، وسيجدها من يطلع عليها خطة متكاملة لإصلاح الجماعة وإزالة أسباب فرقتها التي تتكرر مرة بعد مرة، كما أرجو من قيادة الجماعة أن تجدد دعوة كافة أهل السنة للتباحث حولها واستيعاب من تفاعل معها، فإن الوقت لا ينتظر، وما يتهدد أهل السنة أكبر من أن يجابهه فصيل واحد..

وكذلك أرجو إعادة نشر وإشاعة أدبيات الجماعة وبحوثها حول تأصيل التعامل والتعاون مع المخالف وفق الشريعة تلك الورقة التي قدمها الدكتور حسن الهواري حفظه الله ضمن ملتقيات المجلس العلمي.. وكذلك الورقة التي قدمها الدكتور عبد الكريم محمد عبد الكريم حول مجالات التعاون بين أهل الإسلام في السودان لمجابهة المهددات التي تحدق باستقرار المجتمع، وكان ذلك في المؤتمر العلمي الذي أقامته الجماعة حول التشيع في السودان المهددات وسبل المواجهة..

وأيضا الورقة التي قدمها الدكتور محمد عبد السلام الأمين العام السابق للجماعة، وذلك ضمن مشاركته في ملتقى الدعوة الإسلامية في أفريقيا الذي أقيم بالمملكة العربية السعودية سنة ١٤٣٥هـ، وكانت بعنوان وحدة الصف وأثرها في استقرار المجتمعات..

ثالثا: أوصي أخواني وأبنائي الشباب بالوعي والانتباه حتى لا ينجروا وراء خدع الإعلام العلماني الذي يسعى لتعميق جراح المسلمين وتفريقهم بحجج ودواعي واهية، فيجد الشاب نفسه في خضم عدائه لبعض طوائف العمل الإسلامي يوالي من حاد الله ورسوله..

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى